أين عمري؟

رشا فوزي

استيقظتُ من نومي على صوت دقّات ساعة الحائط تخترق أذني، مختلطة ببقايا صوت أمي يرن داخل عقلي، نابعًا من ذكرى قديمة ممتزجة بأضغاث أحلام:

- البنت ليس لها سوى بيتها وزوجها!

نظرت حولي بفتور، وأنا ما زلت مستلقية على الفراش، أتمتم:

- هذا هو بيتي!

ثم التفتُّ إلى صورة زواجي المعلّقة على الحائط:

- وهذا هو زوجي، فلتهدئي ولتستريحي!!

نهضت من فراشي بآلية، متجهة صوب باب حجرتي، وقبل أن أبلغه حانت مني التفاتة إلى المرآة؛ لأرى امرأة غريبة عني، تنظر لي بعينين خاملتين، لا بريق فيهما، محاطة ببوادر تجاعيد، تعلن باستحياء عن بداية خريف العمر، في حين شعرها الأشعث يحيط بوجهها الخالي من التعبير فلا ينم عن فرح، أو حزن، أو أي شعور آخر، اللهمَّ الإرهاق، الذي ينطق به كل جزء من ملامح وجهها بوضوح.

اقتربت من صورتي في المرآة، أتأملها عن قرب، وكأنني أراها لأول مرة، لاحظت بعض الشعيرات البيضاء، تتسلل محاولة غزو ليل شعري البهيم، لمستها بأناملي، وأنا أخاطبها بمرارة:

- اطمئني، النصر لكِ في النهاية!

غادرت حجرتي؛ليستقبلني ابني ذو الثمانِي سنوات،ببشاشة تُنير ظلمة نفسي

- ماما، صباح الخير.

- صباح الخير يا عُمري.

أقولها له مبتسمة، وأنا أتلقّفه في حضني،

وأضُم جسده الهزيل بقوة، وكأنني أحتضن نفسي، وعمري الذي تسرّب من بين أصابعي، دون أن أشعر، مؤكدة لها أنه لم يَضِع هدرًا.

- ماما، أنتِ تخنقينني!

أسرعت بإطلاق سراحه من بين ذراعيّ، مُنزعجة من الفكرة .

- ماما، لا تنسِ تَمرِين كرة القدم اليوم، المدرب لا يحب المتأخرين، لابد من وجودنا قبل الميعاد بعشر دقائق.

- لا تقلق، لن نتأخر بإذن الله.

قلتها له وأنا أطبع قُبلة دافئة على وجنته، وأنهض متجهة نحو الحمام؛ لأجد ابنتي تخرج منه مُتبخترة بِخيلاء الشباب، وبهائه، تهمس وكأنها تغرّد :

- صباح الخير يا ماما.

- صباح الخير يا عُمري.

طَبعت قبلة خاطفة على وجنتي، ثم أخذت تقول مبتعدة عني، وهي بطريقها إلى حُجرتها:

- -سأخرج اليوم مع صديقاتي للتسوق، بعد العصر.

- -وهل استأذنتِ والدك؟

- - نعم، وقد وافق.

قالتها بصوت عال؛ لتبلغ مسامعي، وهي تغلق الباب خلفها .

بقيت بُرهة واقفة أمام الحمام، أُحملق في باب حجرتهِ المغلق، أرى خلفه بعين خيالي، شبابها الغض الذي يُذكّرني بشبابي!

كنت في سنِّها أرفل في أحلامي العريضة، مُتصورة الدنيا ملك بناني أفعل بها ما يحلو لي، ولم يكن يحلو لي سوى أن أكتب، أسطر كلماتٍ تبني عوالم هي من وحي خيالي، أنفخ فيها من روحي؛ لتستقيم نابضة بالحياة فتسعدني، وتُشعرني بذاتي.

لقد كان حلمي أن أصير كاتبة، حلمًا سعيت وراءه بجِد، وجديّة بين قصور الثقافة، وبيوت الشباب، متطلِّعة بحياء إلى أَرْوقة دور النشر، حتى بلغتُ سنّ الزواج؛ لأصطدم بأمي :

- تسعين خلف سراب! البنت ليس لها سوى بيتها وزوجها!

بينما والدي ينظر لي بشفقة وعطف وهو يقول:

- أخشى عليكِ من لقب عانس الذي لا يرحم؛ أخشى أن يَسرق حلمك عمرك منك!.

قصصك تستطيعين حياكتها هنا أو في بيت زوجك! ولا أنكر أنه عندما رأيت زوجي لأول مرة، شعرت بأنوثتي تنجذب لفحولته بقوة كانت كافية لدك كل حصوني؛ فتزوجت.

كنت في المطبخ، عندما سمعت باب الشقة يُفتح ويُغلق، خرجت لأنظر

مَن؛ فوجدته زوجي.

- أين كنتَ؟، استيقظتُ ولم أجدك في المنزل؟

- كنتُ أضبط وضعية «طبق الدش»، وأطمئنُّ علي جودة أسلاكه على سطح البناية.

- طبعا، فالدوري على الأبواب.

- واليوم بعد عودتي من العمل، لي جولة بحث مع «الرسيفر»؛ للتأكُّد من تواجد جميع القنوات الرياضية، وبهذا أكون أنهيت استعدادي للحدث الأهم.

- مبارك، وبالتوفيق!

قلتها ساخرة وأنا أولّيه ظهري متجهة للمطبخ؛ لأكمل ما بدأته، بينما يتجه هو لغرفتنا مسرعًا، وقبل أن يبلغها كان يسألني بصوت مرتفع حتى أسمعه:

- أين قميصي الأبيض؟

- مكوي، ومعلّق أمامك على الشمَّاعةK كذلك بنطالك الأسود.

وصمتُ برهة؛ لأضيف مسرعة قبل أن يسأل:

- وكل جواربك في درج الجوارب «بالجزامة.»

لا أعرف لماذا أصبحت تلك التفاصيل الصغيرة تُثير غيظي، والسؤال عنها، يُثير حنقي أكثر وأكثر؟!

ربما لأنني أدركت أن الزواج كبحر من الرمال المتحركة، ما إن تضع قدمَيْك فيه، حتى تجد نفسك تغرق ببطء في كم هائل من التفاصيل الصغيرة التي تصبح مسؤولًا عنها، بينما تُجرِّفك تلك التفاصيل بتمكّن بعيداً عن أحلامك وأهدافك.

ففي بداية الزواج، تجد عدم الاستقرار المادي، و»بعبع» كل حديثي الزواج، ألا وهو الأقساط.

وبعد مرور أقل من عام، يُضاف إليه هاجس تأخُّر الإنجاب، والأسباب التي قد تكون وراء ذلك، فتلهث خلف الظنون، والوساوس التي يُساهم فيها المحيطين بك بشكل كبير، كل هذا يحدث، إن لم تظهر بوادر الحمل في أسرع وقت! وعندما يأتي الطفل، تنقلب حياتك رأسًا على عقب، ويُصبح هو محورها، تنام عندما ينام، وتستيقظ عندما يستيقظ، تلهث خلفه في كل ثانية، التطعيم، التسنين، إنه دافئ و يتقيّأ، عنده إمساك، لا بل إسهال، لقد تأخّر في الكلام، لا بل في المشي...

وهكذا حتى تُجن، وما تكاد تنتهي من تلك المرحلة التي هي أشبه بالدوّامة، حتى تأتي مرحلة الدخول إلى المدرسة، ومِن ثَمَّ تجد من يسألك ذاك السؤال اللَّزج:

- ألم يحن الوقت لمؤاخاتهِ؟!

انتبهت من خواطري على صوت جرس الباب؛ لأجد زوجي يهرع خارج غرفتنا، وقد أنهى ارتداء ملابسه، يقول بنفس الصوت المرتفع:

- أنا سأفتح.

أسرعت في الانتهاء من إعداد الفطور، ووضعه على الطاولة في غرفة الطعام.

وبعد لحظات قليلة سمعتُ صوت الباب يُغلق من جديد؛ لأجد زوجي منتصبًا أمامي، متجهِّم الوجه، مُلوحًا بورقة صغيرة يمسكها بيده.

نظرت له بهدوء، بينما الكلام يندفع من فمه بعصبية:

- إنها ابنة البواب جاءت لتعطينا فاتورة الكهرباء.

- جيد !

أجبته بهدوء أقرب للبرود، ثم أردفتُ بنفس الهدوء:

- يبدو أن محصل الكهرباء، جاء البارحة ونحن عند والدتي.
- انظري إلى مبلغ الفاتورة يا هانم.
- تعلم أن أسعار جميع الخدمات قد ازدادت.
- بل السبب هو استعمالكم المُفرط للمكيف.
- أنتَ مَنْ يُصر على تشغيل المكيف عند النوْم !
- أنا أقوم بضبط المُؤقِّت؛ ليتوقف بعد ساعة.
- وكذلك يفعل أولادكَ من بعدك على التوالي!

ظلّ ينظر لي شزرًا، ويهمُّ بفتح فمه؛ ليرغِ ويزيد، ويُهدِّد، ويتوعّد، إلّا أنني أبتدره بنفس الهدوء:

- لا تقلق، لقد أخذت في الحسبان زيادة الفواتير، بالذات الكهرباء، منذ بداية أشهر الصيف، والآن اجلس وتناول إفطارك، حتى لا تتأخر على عملك، فنحن بحاجة لحوافزك، وعلاواتك.

زيّنتُ كلامي بابتسامة، بينما كان هو يجلس على الطاولة كطفل استطاعت أمه احتواء غضبه، وتهدئة ثائرته!

لا أعرف كيف للرجل الشرقي أن يكبر ويصير مستقلًا بحياته، يشقُّ طريقه فيها، يتزوج ويُكوِّن أسرة، ويفتح بيتًا، ويظل مع كل هذا طفلًا في جسد رجل!! و هل هذه الخاصية تخصُّ الرجل الشرقي فقط، أم أنها في عوامِّ الرجال؟!

قبل أن يخرج زوجي متوجهًا إلى عمله، سألني سؤاله المعتاد:

- هل تريدين شيئاً أحضره معي عند عودتي؟

- سلامتك.

- ألا ينقص البيت شيئًا؟!

- ما ينقصه سأشتريه أنا؛ ينجح البائعون دومًا في خداعكَ، إما في الجودة أو في السعر.

ينظر لي مغتاظًا، ثم يقول محاولًا كظم غيظه، معترفًا في قرارة نفسه بصحة ما أقول:

- هكذا إذًا، فليكن! أراكِ على الغداء.

انبثقت من فمي ضحكة، بينما هو يخرج، ويغلق الباب خلفه، أشعر بسعادة طفولية عندما أنجح في إثارة غيظه!

أحضرت مفكرتي الصغيرة وقلمي، وجلست بغرفة المعيشة مع كوب (النسكافيه)، أخطُّ على إحدى صفحاتها البيضاء، عنوان توَسَّط مُقدمة الصفحة:

« ميزانية الشهر»

ما إن انتهيت من كتابة العنوان، حتى تجلجلتْ ضحكات في أرجاء نفسي، فَتزلزلَ صمتها وخُنوعها، تلفتُّ حولي فزعة؛ لأجدها تقف في أحد الأركان مُتّكئة بظهرها على الحائط، عاقدة ذراعَيْها أمام صدرها، تنظر لي باستهزاء بينما تتساقط من بين شفتَيها بقايا ضحكاتٍ ساخرة، إنها أنا منذ خمسة عشر عامًا:

- إذًا هذا ما تجيدين كتابته الآن، ويا ترى ما نوع هذا الأدب؟!

- أدب واقعي!

أجبتها متحدية، فاقتربت وهي تنظر لي بحسرة وتقول:

- ألف خسارة، أين ذهبت أحلامك؟، وفيما ضيعتِ عمركِ؟!!!

كان سؤالها كمشرط حاد صغير، قامت بغرزه في قلبي مباشرة، لكنني أجبتها بـ "حلاوة روحٍ":

- مازال بإمكاني الكتابة أي وقت أشاء.

- حقًا!؟

قالتها ساخرة، ثم أردفت بتحدٍ:

- هاكِ الأوراق والأقلام أمامك، أرني.

أمسكتُ بأحد الأقلام، ونظرت للأوراق البيضاء؛ لأجد عقلي أكثر بياضاً منها وقد هجرته الأفكار، مُخلفة مكانها لكل تفاصيل حياتي الصغيرة التي أعيشها؛ لتحتلّها وتملأها، عوضاً عن القدرة على التعبير والسرد اللّذَيْنِ صدآ وتَيَبَّسا، بفعل عدم الممارسة لفترة طويلة، شعرتُ بالقهر، وانحدرتْ دموعي، تَكتب على أوراقي البيضاء، بدلًا من حبر قلمي الذي يبدو أنه قد جَف!

تلفتتُ حولي بخزي باحثة عن نفسي، فلم أجدها، لكني وجدت ابني، يقف قِبَلَتِي مشدوهًا، جزعًا:

- ماما إلى من كنتِ تتحدثين؟! ولماذا تبكين؟!

أجبته بانكسار، وأنا أدرك أنه لن يفهم إجابتي:

- أتحدث إلى نفسي، وأبكي عليها!

ثم نهضت بنفس الانكسار، متجهة إلى المطبخ؛ لأنهي أعمالي .

مع الظهيرة، كنتُ أنهيت جميع أعمالي المنزلية، شعرت برغبة تدفعني إلى التجوُّل في ذكرياتي، فذهبت إلى حجرتي، وأخرجت من خزانتي لفافة صغيرة، وجلست على فراشي، أهمُّ بفتحها، وإخراج ما بها، لكن في نفس اللحظة؛ سمعت صوت زوجي قادمًا من خارج الغرفة:

- لقد عدت يا أهل الدار، أين الغداء؟!

فعدلت عما انتويت فعله، وأجَّلته إلى حين، ودسست لفافتي أسفل الوسادة، ثم هرعت للخارج، أستقبل زوجي، وأعد مائدة الطعام .

بعد الغداء، قررت الاختلاء بنفسي مع ذكرياتي، مطمئنة لانشغال الجميع عني، فابنتي تستعد للخروج مع صديقاتها، وابني مع زوجي يهتمان بأمر (الرسيفر)، والقنوات الرياضية.

دخلت غرفتي وأغلقت بابها، سحبت لفافتي من أسفل الوسادة، وبحرص شديد فتحتها؛ لأُخرِج منها مجلة، وشهادة تقدير؛ هي لي!

أخذت أتأمل شهادة التقدير بشجن، بينما عيناي تعانق حروفها بشوق وحنين :

« الكاتبة الفائزة بالمركز الأول في مجال القصة القصيرة»

لتُّجرِّفني موجة من الذكريات السعيدة بعيدًا عن عالمي، مُلقية بي في أحضان زمن قد ولى، تغمرني بتفاصيل أحداثه التي مضت واندثرتْ.

وبينما أنا محلقة في سماء الماضي، هائمة مع الذكريات، فإذا بطرقات على باب حجرتي جعلتني أجفل، وقد أخرجتني من حالة النشوة التي صنعتها لي ذكرياتي؛ مما سبب شعورًا بالضيق جعلني أُجيب الطارق بلهجة مُتذمِّرة:

- أدخل.

لتدخل ابنتي، وتقف أمامي متسائلة، بينما تنظر للفافة التي بين يدي بشيء يسير من الفضول:

- ماما، هل رأيتِ كنزتي الزرقاء؟

- أعتقد أنها ما زالت في الغسيل.

- كنتُ أود ارتداءها اليوم!

قالتها محتجة، قلت لها، وأنا أحاول جاهدة كبح جماح الضيق الذي أُفرزه غضبًا:

- خزانتك تعجُّ بالملابس، اذهبي وارتدِ منها شيئًا آخر، فالدنيا لن تتوقف إن لم ترتدي كنزتك الزرقاء هذا اليوم بالذات!

نظرت لي متبرِّمة، وهي تنقل بصرها بيني وبين أوراقي، ثم ضربت الأرض بقدمَيْها، ودلفتْ سريعًا خارج الغرفة صافقة الباب خلفها.

لم أُبالِ لِرد فعلها غير اللائق؛ فقد كانت رغبتي في العودة لأوراقي وذكرياتي أشد من رغبتي في الجدال معها بشأن تصرفها غير المُهذب معي!

ثمّ عدت إلى لفافتي أتناول منها المجلة وأتصفحها، حتى وصلت إلى حيث نُشِرت قصتي الفائزة؛ فأخذت أتأملها باستغراق، وإذا بالباب يُطرَق من جديد، ويدخل أبني الصغير دون أن آذن له:

- ماما.. ماما!

- نعم.

- بابا يريد أن يشرب شايًا!

- حاضر، اذهب أنتَ وأنا سأّعد لبابا الشاي.

- ماما.. ماما!

- نعم

قلتها بنفاذ صبر.

- لا تنسِ موعد تدريب الكرة.

- لن أنسى.

خاطبته بعصبية أشبه بالزجر لم يشهدها مني قبلًا، فتسمَّر مكانه متفاجئًا، وقد اتَّسعت عيناه البريئة بينما يقول لي ببطء:

- ماما، هل أنتِ غاضبة مني؟!

في تلك اللحظة شعرت بكراهية شديدة تجاه نفسي؛ فما ذنب أطفالي وتلك الأحلام البائسة، سحقًا لي وسحقًا للكل عدَاهمْ!

رميتُ المجلة بعيدًا، وأسرعتُ أحتضن ابني، وأنا أُقبله بحنو قائلة له:

- لا يا حبيبي أنا فقط متعبة قليلًا.

- فلنذهب إلى طبيب.

قالها ببراءته التي تأسرني، أجبته بابتسامة :

- لا داعِ، هيا نذهب لنعدُّ الشاي لأبيكَ.

خرجنا من الغرفة معًا، لأدلف أنا إلى داخل المطبخ، بينما هرول طفلي إلى غرفة المعيشة حيثُ أبيه.

لحقت به بعد لحظات كنت أعددت فيها الشاي مع بعض»الكيك» المعد مسبقًا .

وعندما دخلت غرفة المعيشة، فوجئت بثلاثتهم، زوجي، وابني، وابنتي، يجلسون متجاورين على المقعد الكبير، يتهامسون فيما بينهم وكأنه اجتماع سريّ، وعندما انتبهوا لوجودي تطلَّعوا الثلاثة لي دفعة واحدة، بأفواه صامتة وعيونٍ واشية، فَتَيَقَّنتُ بحدوث خطب ما!

- ما خطبكم؟!

سألتُ بسرعة وتوتر، وأنا أضع الشاي و «الكيك» على الطاولة الصغيرة التي أمامهم.

بينما التفتُّ للتلفاز بحركة لا إرادية لأجده مغلقًا :

- هل تعطَّل؟!

قلتها وأنا أُوجِّه بصري صوب يدي زوجي؛ متوقعة أن أجد «الريموت» بين أصابعه؛ فألتقطه، لأجد لنفسي إجابة عن سؤالي، لكني فوجئتُ بهاتفي المحمول بين يدي زوجي عوضًا عن «الريموت»، فنظرت له متسائلة:

- ما الأمر؟! هل حدث شيء لهاتفي؟

- اطمئني، التلفاز وهاتفك بخير.

قالها وقد ارتسمت ابتسامة هادئة على وجهه، ثم أردف:

- على عكسكِ أنتِ!

- أنا؟!!

- نعم، أنتِ.

فضّ ابني النقاش القائِم بيني وبين زوجي، وهو يهتف في حماس:

- لقد أعد أبي لكِ صفحة على الفيس؛ لكي تكتبي عليها قصصك، ويقرأها الناس.

فَأسرعت أخته بلكزه لكزة خفيفة، وهي تُخاطبه مُعاتبة:

- لقد أفسدت المفاجئة.

بينما أتساءل أنا مُتعجّبة:

- صفحة، أي صفحة أنا لا أفهم شيئًا!

ابتسم الجميع؛ لعلمهم بجهلي المُطْبِق بكل ما يخص الانترنت؛ لقد كنت حتى تلك اللحظة لا أعني به، ولا أتعامل معه إلا في أضيق الحدود!

فجذبني زوجي من يدي لأجلس إلى جواره، بينما كانت ابنتي تسحب أخاها من يده صوب حجرته، وهي تقول بابتسامة واسعة:

- أبي سيشرح لكِ، بينما أساعد أنا أخي في ارتداء ملابس التدريب، وإعداد حقيبته الرياضية، قبل أن أخرج لألتقي صديقاتي.

نظرتُ لها باندهاش، فلم أعتد منها تعاونًا، أو اهتمامًا بغير عالمها الخاص؛ كشأن أغلب المراهقات! انتبهت على صوت زوجي يخاطبني:

- لقد أعددت لك صفحة على الفيس؛ لتنشري كل ما تكتبينه من قصص عليها؛ لعلَّ تفاعل الناس يُشجعك على العودة إلى الكتابة، وسأدعو جميع الأصدقاء والأقارب للإعجاب بها، أظن لم يعد لديكِ أي حُجّة! وسأساعدك في توفير الوقت للكتابة؛ فمثلا أنا من سيصطحب ابننا للتدريب!

ثم أردف بنبرة مُمازحة:

- إلا إذا تعارض هذا مع مباريات الدوري طبعًا.

أكمل كلامه بضحكة جذابة، بينما كنتُ أنظر له، وكأنني أراه للمرّة الأولى، كيوم أن جاء لمنزل أهلي للتعارف، وطلب يدي!، فَشعرت بعينيّ تغرورقان بالدموع.

نظر لي نظرة عطف، وحنان، هو يقول:

- لم تخبريني بعد، ما الاسم الذي ستطلقينه على الصفحة؟

أجبته بدون تردد:

- سأسميها «أين عمري؟»

نظر لي مستغربًا الاسم، فأردفت مُوضحة:

- فهذه الصفحة ستكون الإجابة الأبديّة لهذا السؤال!

لم يبدُ لي أنه أَدرك معنى كلامي، بينما كنتُ أنظر بابتسامة شامتة لنفسي منذ خمسة عشر عامًا، وهي تقف في أحد الأركان تذوب حرجًا، وتتبدَّد في الهواء!

تمت بحمد الله.